نماذج من كتب المستشرقين

نستعرض فى هذا الفصل مجموعة مختارة من كتب المستشرقين وأبحاثهم، اخترناها لتكون نماذج لمجموعة مختلفة من الاتجاهات والأساليب، وإن كانت تلتقى فى النهاية عند غاية واحدة، أو غايات متقاربة، هى التى تحدثنا عنها من قبل فى فصل «الأهداف والوسائل».

وقد قسمنا هذه النماذج – بحسب طريقتها فى أداء مهمتها – إلى مجموعات مختلفة.

فالمجموعة الأولى – أو المدرسة الأولى إن شئت تقسيمها إلى مدارس – يمكن أن نطلق عليها اسم «المهاجمين» وهى التى تغلب عليها صفة الهجوم المباشر، وكيل التهم جزافا بغير ذكر دليل فى كثير من الأحيان، أو بأدلة غاية فى التهافت فى بقية الأحيان! وقد اخترنا لها اثنين من المستشرقين هما «مرجوليوث» و«فلهوزن» على أنهما مجرد نماذج. وليس على سبيل الحصر، فغيرهما على هذا النمط كثيرون.

والمجموعة الثانية – أو المدرسة الثانية – يمكن أن نطلق عليها اسم «المدرسة الحديثة» وهى التى تمزج المديح بالغمز واللمز، أو تدس السم فى العسل بالتعبير المشهور. وقد نستطيع مطمئنين أن نقول إن مؤسسها – فى اللغة الانجليزية على الاقل – هو المستشرق الانجليزى «جب» الذى كان يعيش إلى سنوات قريبة، وقد اخترنا لها ثلاثة من المستشرقين: «جب» نفسه واثنين من تلاميذه هما «فون جرونيباوم» و«ولفرد كانتول سميث».

وثمت مدرسة ثالثة ظاهرها المديح الخالص الذى لا لمز فيه ولا تجريح، ولكنها – فى النهاية – لا تخرج عن الخط العام للمستشرقين، وقد اخترنا لها واشنطن إرفنج» المستشرق الأمريكى الذى عاش فى القرن الماضى.

أما المجموعة الأخيرة من النماذج فهى لا تكوّن مدرسة بالمعنى السابق، لكن

يمكن أن نطلق عليها أنها «دراسات موجهة». وكل كتب المستشرقين موجهة بلا شك! موجهة ضد الإسلام! ولكننا نعنى بقولنا «دراسات موجهة» أنها تحوى دراسات «للتعامل» مع الإسلام والمسلمين، موجهة إما إلى المسلمين أنفسهم وإما للجهات التى يهمها الأمر كدراسة «مرو برجر» عن «العالم العربى اليوم» ودراسة «هربر دكمجيان» عن «الحركات الأصولية فى العالم الإسلامى».

ولسنا نستعرض هذه النماذج أساسا لنرد على ما يثيره المستشرقون من دعاوى وشبهات حول الإسلام، وإن كان هذا واردا فى نقاشنا لبعض النقاط التى تحتويها كتبهم. ولكنا نستعرضها لهدفين أساسيين:

الأول: بيان الوسائل الملتوية التى يلجأ إليها أولئك المستشرقون لتشويه حقائق الإسلام، لإبراز حقيقة معينة، تكون جوابا موضوعيا على السؤال الذى يتردد فى نفوس بعض الدارسين حول النزاهة العلمية لأولئك المستشرقين، وهل هم حقا «علماء» يدرسون من أجل الحق، أم «أعداء» يدرسون من أجل هدف آخر؟

والثانى: بيان مدى التأثر المسموم الذى وقع فى نفوس «المثقفين» من كتابات أولئك المستشرقين، وكيف أصبحت كتابات أولئك «المثقفين» ومواقفهم من الإسلام صورة مترجمة من أقوال المستشرقين، يرددونها بوعى أو بغير وعى، دون أن يكلفوا أنفسهم – من أجل «العلم» على الأقل إن لم يكن من أجل دينهم وعقيدتهم – بمراجعة حقائق الإسلام من مصادرها الأصلية، والتثبت من صحة ما يرددون من كلام المستشرقين، والله يقول: ﴿**وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا**﴾ [الإسراء: ٣٦]

فأما بالنسبة للهدف الأول فسيكون عرضنا بالقدر المناسب من التوضيح، الذى يتناول الخطوط الرئيسية فحسب، حتى لا يتضخم الفصل، ومن ثم يتضخم الكتاب!

وأما بالنسبة للهدف الثانى، فسيتعرف القارئ من تلقاء نفسه فى أثناء

عرض النماذج على الأصول «الخفية» للكلام التى يردده «المثقفون» حول الإسلام! وهذا وحده يكفى. وإن كنا قد نشير أحيانا إلى قضايا معينة وردت فى كتابات أولئك «المثقفين» نقلا عن المستشرقين، حين تكون ذات دلالة خاصة، كقضية «الشعر الجاهلى» التى أثارها الدكتور طه حسين.

فإذا خلصنا من عرض هذه النماذج بهاتين النتيجتين، فلا علينا بعد ذلك إذا رددنا على بعض الشبهات والقضايا، أو سردناها مجرد سرد بغير تعليق!

وحين نتحدث عن «المثقفين» ونضع الكلمة بين أقواس، فإننا نعنى طائفة معينة منهم، وهم الذين تشربت عقولهم وأرواحهم الغزو الفكرى. فصاروا نسخا مشوهة من سادتهم، ولا نقصد كل المثقفين بطبيعة الحال، فإن فى كثير منهم خيرا كثيرا بإذن الله، ولقد أنتجت الصحوة الإسلامية أجيالا جديدة من المثقفين يستمدون ثقافتهم ابتداء من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ثم يطلعون على ما شاءوا من فكر الغرب وهم معتزون بدينهم، متحصنون به من كيد أعدائهم وسمومهم. إنما وضعنا تلك الطائفة المعينة بين الأقواس لأنهم – فى الوهم الذى يعيشون فيه – يحسبون أنهم هم المثقفون بحق، وأنهم – وحدهم – الجديرون بأن يوصفوا بأنهم مثقفون!

* * *